(الأمة العربية والتجدد العمراني الذاتي)

بحث أعده

طه جابر العلواني

للمشاركة في ندوة

(نحو مشروع حضاري نهضوي عربي)

توطئة:

كان الصديق الأستاذ صبحي غندور مدير مركز الحوار العربي في واشنطن قد دعاني لتقديم محاضرة عن (الإسلام والعروبة) في المركز فترددت كثيرا، وأخبرت الأخ صبحي بأن الموضوع صعب جدا –وإن بدا له سهلا– فألح وغيّر عنوان الموضوع ليجعله أخف عليّ، فجعله (خواطر في الإسلام والعروبة) ومع ذلك فإنني حين حل الموعد قدمت موضوعا بعيدا عن النقاط المركزية في الموضوع المقترح، وحاولت أن أجعل منه مقدمة لتناول الموضوع المقترح فتناولت أمورا اعتبرتها عوائق أساسية تحول دون تحقيق مشروع النهوض العربي الإسلامي، أو العربي المجرد، أو الإسلامي المجرد وتردّه دائما إلى الخلف بعد أن يظن بأنه قد تقدم إلى الأمام، وشعرت بأن بعض الحضور لم يرق لهم ذلك، وأنهم كانوا يتوقعون مني حديثا صريحا مباشرًا في الإسلام والعروبة وعوامل الاتصال والانفصال بينهما وقدرتهما الأكيدة على تقديم مشروع نهضوي عربي إسلامي، أو عربي مطلق، أو إسلامي مطلق.

والموضوع الذي التزمت الكتابة فيه لندوة (نحو مشروع حضاري نهضوي عربي) يتجاوز موضوع مركز الحوار ويدخل في تحديد دقيق لا يدع مجالا لتجاوز النهج الأكاديمي في الكتابة نهجًا يعتمد على تحديد "إشكالية البحث" ومنهج مقاربتها والوسائل والأدوات التي سيعتمدها الباحث وهو يجوب الجوانب المختلفة للإشكالية، ويعمل على معالجتها حتى يصل إلى ما يعتبره نتيجة.

فالموضوع الذي اقترح عليّ أن أكتب فيه هو "الأمة العربية وإشكالية التجدُّد الذاتي" والعنوان بحد ذاته يستدعي الإشكالية دون إبطاء، ويسلط عليها أضواء كاشفة تحمل على المبادرة لصياغة أسئلة الإشكالية صياغة تقترب كثيرا من الدقة.

إشكالية البحث:

تتلخص إشكالية البحث في أن هناك "أمة" عربية تم تكوّنها على الأرض العربية في ظرف تاريخي معيّن، وأسست حضارة عدّها مؤرخو الحضارات أهم حضارة شهدتها الأرض من حيث إنسانيتها واحترامها للإنسان حقيقة ووجودا ودورا، وملاحظتها للقيم وتبنِّيها لها، وبراءتها من العيوب التي سيطرت على الحضارات التي سبقتها فهي لم تؤسس لعلو عربي في الأرض، بل أسست لقيم عبر عنها أحد رجال الفتح العربيّ بقوله: "إن الله ابتعثنا لنخرج من شاء من عبادة العباد إلى عبادة الله وحده، ومن جور الأديان إلى عدل الإسلام، ومن ضيق الدنيا إلى سعة الدنيا والآخرة" فهي حضارة أخرجت البشرية كلها حتى تلك التي تصدت لها وحاربتها من الظلمات إلى النور، وقد بقيت هذه الحضارة تقاوم عوامل التقادم والتراجع، وتجدد بعض ما يبلى من مقوماتها قرونا طويلة، وتنقلت راياتها الخفاقة بين عواصم كثيرة وحواضر عديدة دون أن تسقط حتى أوائل هذا القرن حيث سقطت الراية أخيرًا ولم تجد سواعد قوية تعيد حملها وتتقدم بها من جديد، ومنذ سقوطها ذلك لم ترتفع لها حتى اليوم راية إلا على مستويات إقليمية سرعان ما جذَّرت في صيغها الإسلامية والقومية العربية الفوارق الإقليمية، وأعطتها من عوامل القوة أكثر مما أعطت لمقومات الإسلام والقومية العربية —معًا—. وطرح السؤال المشكل: لماذا تأخرت هذه الأمة ولماذا تقدم غيرها؟ ولم يأت الجواب الشافي حتى اليوم، فهل هي حالة ميئوس منها؟ وهل فنيت عوامل التجدُّد الذاتي في هذه الأمة؟ أو هل كانت إصابتها أخطر وأبلغ وأقوى من أجهزة مناعتها، ففتك المرض بها فتكا لا علاج له؟ أو هل نعدّها من بين

الأمم التي سادت ثم بادت؟ كيف نفسر تراجع سائر محاولاتها للنهوض؟ وتراجعها دون تحقيق الحدود الدنيا من مطالبها؟ كيف نفسر فقدانها لدافعيّتها وحيويتها؟ وفي الوقت نفسه كيف نفسر بقاءها واستمرارها، بل وجود كثير من عوامل النهوض فيها رغم أن إصاباتها كانت إصابات مميتة جاءت إثر صراع وجود لا شهود، مثل صراعها مع الاستعمار بكل أشكاله، ثم صراعها مع إسرائيل الذي لايزال قائمًا؟ ما هي عوامل البقاء والاستمرار في لغتها وثقافتها التي مكنت لهما وحافظت عليهما، وهل يمكن للغتها وثقافتها إن تكونا مصدر بعث وإحياء وتجديد لكيانها الاجتماعي وكيف؟!

هذه بعض تساؤلات يمكن من خلالها رسم صورة ذهنية لمعالم الإشكالية، إشكالية "النهضة العربية" أو "النهوض العربي" وتبين مدى تعقيدها.

تحرير المصطلحات وإعادة بناء المفاهيم:

إن المصطلحات والمفاهيم التي سيجري تناولها وتداولها في هذا البحث بدءا بالعنوان، هي: مفهوم "الأمة العربية" ومفهوم "التجدُّد الذاتي" ومفهوم "التجديد" بوصفه مفهومًا ومفهوما "الاجتهاد والإبداع" ومفهوم "المنطقة العربية أو الوطن العربي" تلك هي أهم المفاهيم التي سيقارب هذا البحث بها إشكاليته، وهناك مصطلحات فرعية قد يجر البحث إلى التعرض لها سنوضح ما نراه بحاجة إلى التوضيح منها خلال البحث.

مفهوم "الأمة" بدون وصفه "بالعربية" أو إضافة "العربية" إليه مفهوم تعرض للتشكيك في أصله العربي من كتّاب "دائرة المعارف الإسلامية" حيث ورد في هذه الموسوعة: "...أمة: هي الكلمة التي وردت في القرآن للدلالة على شعب أو جماعة، وهي ليست مشتقة من الكلمة العربية "أمَّ" بل هي كلمة دخيلة مأخوذة من العبرية "أمّا" أو من الآرامية "أمِّيثا"؛ لذلك فلا صلة مباشرة بينها وبين كلمة "أمة" التي تدل

على معان أخرى مثل حين من الزمن –سورة هود (8) وسورة يوسف (45)، أوالجيل، وهذه نجدها في القرآن أيضًا، سورة الزخرف (22) وما بعدها." وتستمر الموسوعة في ادعاءاتها لتقول: "وقد تكون الكلمة الأجنبية دخلت لغة العرب في زمن متقدم بعض الشيء[1]. ومهما يكن من شيء فإن محمدًا أخذ هذه الكلمة واستعملها وصارت منذ ذلك الحين لفظًا إسلاميًا أصيلًا.

والآيات التي وردت فيها كلمة "أمة" –وجمعها أمم– في القرآن مختلفة المعنى بحيث لا يمكن تحديد معناها بالتدقيق. على أن مما لا شك فيه أنها تدل دائمًا على فئة أو طائفة من الناس تربطهم أواصر الجنس أو اللغة أو الدين، وهم داخلون فيمن سيحاسبهم الله على ما كسبوا في هذه الحياة، ونجد دلائل تؤيد هذا المعنى حتى في الآيات التي وردت فيها كلمة "أمة" من غير نسبة إلى شيء ما، مثل آية /164/ من سورة الأعراف، وآية /23/ من سورة القصص.

ويطلق لفظ "الأمة" للدلالة على الجيل في آيات متفرقة –سورة الأعراف: 38 – وسورة فصلت: 25 – وسورة الأحقاف: 18 – بل وعلى جميع الكائنات الحية –الأنعام: 38– ويراد بهذا اللفظ دائمًا عند إطلاقه على هذه الكائنات أنها داخلة فيمن سيحشرون للحساب وأنها أهل للجزاء.

ويقال أحيانًا إن سبب الاختلاف هو بغي الناس وشقاقهم –البقرة: 213– الأنبياء: 93 – المؤمنون: 53–.

وفي آية أخرى يرجع السبب إلى انقسام بني إسرائيل إلى اثنتي عشرة أمة – الأعراف: 60 وانظر أيضًا : 168.

1 انظر ما يقوله هورفتز عن نقش الصفا رقم 52 ص. 407

ويظهر أن أقوال محمد هذه، وفيها من الخطابة أكثر مما فيها من المنطق إنما كانت إجابة على اعتراضات أثارها خصومه من أهل الكتاب، وما كان النبي ليتعرض لهذه المسألة الصعبة من تلقاء نفسه.

أما فيما يتعلق بأمة محمد خاصة، فنستطيع أن نتبدل بعض الاختلاف، والتبدل في معنى كلمة "أمة" والمسألة —هنا– أسهل لأننا نعالج إلى حد ما مسألة تاريخية.

كان محمد في أول رسالته يعتبر العرب عامة ومواطنيه من أهل مكة أمة قائمة بذاتها، وكما أن الله أرسل رسله ومنذريه إلى الأمم السالفة، فهو قد أرسل محمدًا ليبلغ رسالة الله إلى الأمة العربية، ويبين لها طريق النجاة، ولم يكن قد بُعث فيها رسول من قبل، وقد كُذب وأوذي أشد الإيذاء، شأن من سبقه من الرسل.

وبعد أن قطع النبي علاقاته مع أهل مكة الوثنيين، وهاجر هو وأصحابه إلى المدينة، أسس جماعة جديدة تجعل أهل المدينة جميعًا جماعة سياسية واحدة بما فيهم المسلمون ومن لم يستجيبوا إلى دعوته الدينية. وينص كتاب النبي بين المهاجرين والأنصار الذي وضعت فيه أسس هذا الحلف نصًا صريحًا على أن أهل المدينة بما فيهم اليهود يكوّنون أمة —ابن هشام: 341-342 وما بعدها– على أن الصيغة السياسية الغالبة في هذه الأمة الجديدة إنما كانت مؤقتة.

فلم يكد محمد يُحسُّ أن مركزه قد توطد في المدينة، ويرى انتصاره في حروبه مع كفار مكة حتى استطاع أن يخرج من جماعته السياسية الدينية أهل المدينة وخصوصًا "اليهود" الذين لم يعتنقوا الدين الذي جاء به، وبمرور الزمن صارت أمته تتألف من المسلمين وحدهم، وصار يعتبر المسلمين أمة، ويؤكد صفاتهم الخلقية والدينية —آل عمران: 104-110– ويعتبرهم غير أهل الكتاب الذين كان مخالفًا لهم.

وكان من أثر قطعه للصلة بأهل الكتاب أن بدأ يميل شيئًا فشيئًا إلى أهل مكة وإلى الكعبة مركز عبادتهم –البقرة: 119 وما بعدها، خصوصًا: 122 – والحج: 35، 66.

وإنما كان رجوعه إلى فكرته الأولى في إنشاء أمة تشمل العرب جميعًا رجوعًا جوهريًا، فالحقيقة أن النتيجة الأخيرة التي وصل إليها تختلف اختلافًا جوهريًا عن النقطة التي بدأ منها، فإن فكرة إنشاء أمة عربية، وهي الفكرة التي أخذها محمد أول الأمر قضية مسلمة لم تتم إلا بعد جهد عظيم. على أنه إذا كانت الأمة التي أنشأها أول الأمر هي من العرب، فقد كان هذا أمرًا ثانويًا.

أما الأمر الجوهري فهو الأساس الديني الذي قامت عليه، فبعد أن كانت أمة من العرب صارت أمة من المسلمين. ولا عجب أنه لم يكد محمد يموت حتى انتشرت إلى ما وراء جزيرة العرب، وأصبحت بمرور الزمن وحدة كبيرة تشمل أجناسًا وأممًا مختلفة.

وأطلق لفظ "الأمة" شذوذًا في آية واحدة –سورة النحل: 120– للدلالة على فرد هو إبراهيم. ومعنى لفظ "الأمة" –هنا– أيضًا: الإمام، كما يقول علماء اللغة، أو أن إبراهيم سُمي "أمة" بصفته رئيس الجماعة التي أنشأها، وذلك بإطلاق لفظ الكل على الجزء.

وفيماعدا هذا يدل لفظ "الأمة" دائمًا على جماعات كبيرة، أو على الأقل جماعات تنطوي في غيرها أكبر منها.

وقد أرسل الله لكل أمة رسولًا–الأنعام : 42–يونس : 47–الرعد : 30 –النحل : 43، 63–المؤمنون : 45–العنكبوت : 18–غافر : 5–أو نذيرًا– فاطر : 23، 42–يهديهم إلى الصراط المستقيم. ولكن هؤلاء الرسل أُذوا وكُذبوا، كما وقع لمحمد–المؤمنون: 44–العنكبوت : 18–وغافر : 5– ولذلك سيكونون يوم القيامة شهداء على من كذّبهم وآذاهم–النساء : 40–النحل :

84، 89–القصص : 75–البقرة : 142-. وكل أمة ستحشر للحساب – الأنعام: 108 – الأعراف: 37 – يونس: 45 – الحجر: 5 – المؤمنون: 43 – النمل: 83 – الجاثية: 27-.

وفي الأمم المختلفة قوم أجابوا دعوة الرسل فاهتدوا إلى الصراط المستقيم، وآخرون لم يؤمنوا بما جاؤوا به –النحل: 36- ويصدق هذا بنوع خاص على أهل الكتاب، ويسمى المهتدون من أهل الكتاب أممًا –آل عمران: 113 وما بعدها – المائدة: 65–الأعراف : 159–البقرة : 128، 134– الأعراف : 167، 181–هود : 48-وهم طوائف صغيرة في جماعات كبيرة.

وكثيرًا ما يتعرض محمد لبحث مسألة اختلاف الناس أممًا بعد أن كانوا أمة واحدة، ويرى أن السبب الحقيقي لهذا الاختلاف هو إرادة الله التي لا نحيط بها: (وما كان الناس إلا أمة واحدة فاختلفوا ولولا كلمة سبقت من ربك لقُضي بينهم فيما فيه يختلفون) يونس : 19، وانظر سورة المائدة : 48-وهود : 118 – والنحل : 93–والشورى : 8.

إن هذه الخطيئة المعرفية لا يمكن أن تكون قد حدثت دون قصد، بل القصد السيء واضح، ولا يستهدف مجرد نفي المعنى العربي الإسلامي للمفهوم فقط، بل يريد إلقاء ظلال الشك على المعنى ذاته، ونفي أن يكون هذا المعنى من المعاني المعروفة لدى العرب والمتداولة بينهم؛ إذ إن المعنى يستدعي ولو على سبيل دلالة الالتزام الجانب المدني والعمراني، لأن من العسير إن لم يكن من المتعذر أن تكون أمة بلا منظومة أو شبكة من العلاقات، والروابط على رؤية عمرانية أو حضارية في أي مستوى كانت.

وهذا ما أراد مؤلفو دائرة المعارف تجريد العرب والمسلمين منه معًا. وهذا يُذّكر بالدعوى العريضة الأخرى التي طالما رددها المستشرقون من أن القرآن المجيد قد اشتمل على "المعرب والدخيل" من الكلمات، وعند البحث يقدمون ما لا

يتجاوز عشر كلمات من تلك التي لم يعثروا لها على جذور اشتقاقية في الشعر أو النثر الجاهلي، وعدم الوجدان لا يدل على عدم الوجود.

وقد تكفل الإمام الشافعي في رسالته الأصولية بالرد المفحم القاطع للجدل حول هذه الشبهة تماما، وقد أرجع كل كلمة من تلك الكلمات إلى أصلها العربي.

وكلمة "الأمة" مثلها، فلِمَ لا تعدُّ الكلمة عربية، واستعارتها العبرية والآرامية، إذ ليس هذا الاحتمال بأقل صلاحية من الاحتمال الآخر؟!

أما إضافة الكلمة إلى العربية فهو أمر لا غبار عليه، فإن القرآن الكريم قد استعمل هذا اللفظ في سورة الأنعام (6: 38) استعمالًا عامًا فأطلقها على سائر الأجناس والكائنات المتمايزة؛ قال تعالى: (وما من دابة في الأرض ولا طائر يطير بجناحيه إلا أمم أمثالكم ما فرطنا في الكتاب من شيء ثم إلى ربهم يحشرون). ولكن "حزب التحرير" قد منع من إضافة "الأمة" إلى العربية بحجة أن مفهوم الأمة لا يطلق إلا على مجموعة من الناس تربط بينهم عقيدة، أما الجامع القومي وسائر الروابط الأخرى فلا ترتقي إلى مستوى العقيدة، إضافة إلى أن فكر "القومية" فكرة يحيط بها الغموض من كل جانب لكثرة ما أعطيت من تفسيرات!! ولذلك فهم يصرون على إطلاق لفظ "الشعب" على العرب، لا الأمة، فإن كان ذلك مجرد اصطلاح لهم، فلا مشاحة في الاصطلاح، وإن كانوا قد ذهبوا إلى ذلك انطلاقًا من الدين أو اللغة، فالقرآن الكريم لا يشهد لهم بذلك. ولذلك فإن من الممكن القول بأن استعمال مفهوم "الأمة العربية" أو "الشعب العربي" كلاهما من الاستعمالات السائغة لغة ودينًا واصطلاحًا.

ولولا خوف الإطالة لتتبعنا سائر المعاني التي استعمل القرآن فيها هذا المفهوم وكذلك اللغة العربية، لكن ذلك قد يستوعب بحثًا مستقلًا خاصًا بهذا المفهوم الهام. فمن أراد الاستزادة فليراجع المفردات للراغب الأصفهاني ولسان العرب

وتاج العروس وتفسير الآيات التي ذكرنا أرقامها لدى الطبري والزمخشري وغيرهما، إضافة إلى البحث المستفيض الذي كتبه د. أحمد حسن فرحات "الأمة في دلالتها العربية والقرآنية" (طبع دار عمار في الأردن، 1983م.)